نعيم ناصر*

جذور الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين

مراجعة للتاريخ

اسم الكتاب : اسرائيل / فلسطين
الواقع ما وراء الأساطير
المؤلف : ميخائيل هرسيغور وموريس سترون
المترجم : سلمان ناطور
عدد الصفحات : ٣١٩ صفحة.
الترجمة العربية : منشورات «مشاعل» للصحافة والدراسات/ رام الله

كثيرة هي الكتب، التي تناولت القضية الفلسطينية، والصراع العربي ـ الإسرائيلي، ولكن، قلة منها تناولتهما بموضوعية وتجرد بعيداً عن «الحق التاريخي»، و «الهبة الإلهية» للأرض الفلسطينية. ويعتبر هذا الكتاب، الذي ألّفه الكاتبان البارزان ميخائيل هرسيغور، وموريس سترون، «واحداً من أكثر الكتب اقناعاً، من بين الأعمال، التي كُتبت عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي»، كما قال الدكتور عزمي بشارة، الأكاديمي، وعضو الكنيست الإسرائيلي عن «التجمع الديمقراطي العربي»، في معرض تقويمه لهذا المؤلف، مضيفاً أن الكتاب «يتميز، في شكل أساسي، بآلية تحليل عقلانية وعلمانية لفهم التاريخ العربي واليهودي، ولدراسة العلاقات الصعبة بين الشعبين».

والكتاب، الذي يحمل عنواناً مثيراً للجدل، ليس بحثاً تاريخياً، كما يؤكد مؤلفاه، وإنما نبذة تاريخية لجذور الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأحقية كل طرف بهذه البلاد. وقد حاولا، كما كتبا في مقدمته، فهم ادعاءات الطرفين لهذه الحقوق، ضمن منظورهما التاريخي، ومحاولة الإجابة عن سؤال افتراضي في ما إذا كان تواجد هذا الطرف أو ذاك على أرض فلسطين، في مرحلة تاريخية معينة، يبرر نفيه للطرف الآخر.

وسعى الكاتبان، من جهة أخرى، إلى الكشف عن عملية التغيير

* كاتب وصحفي من رام الله.

المتواصلة والتدريجية، التي رافقت الشعبين اليهودي والعربي في علاقتيهما بهذه المنطقة. وكي يدركا مطالب الطرفين في البلد نفسه، درسا، في البداية، العنصر القومي في تاريخ اليهود والعرب استناداً إلى مجريات التاريخ.

«وبما أن الشعب العبري، كان له كيان قومي في أرض إسرائيل» اكتفى الكتاب بالقاء الضوء على العلاقات بين هذا الشعب وبين الأرض، التي عاش عليها (فلسطين). وبالمقابل، وانطلاقاً من حقيقة أن الشعب الفلسطيني هو جزء من الأمة العربية «التي كان لها كيان مستقل» فقد توسع الكاتبان في دراسة منطقة الهلال الخصيب لفهم العلاقات، التي تربط الشعب الفلسطيني بهذه الأرض.

وكي لا يلتبس مفهوما «الشعب» و«الأمة» المستخدمان في هذا الكتاب، في أذهان القراء، عرّف المؤلفان الشعب بأنه مجموعة من البشر تبلورت كوحدة اجتماعية مستمدة من التاريخ والثقافة واللغة المشتركة. وضربا مثلاً على ذلك الشعب الإنكليزي، الذي نجح، خلال مسيرته التاريخية من استيعاب القالطيين والسكسونيين والنورمنديين، كون هذه الشعوب تحمل هوية تاريخية وثقافية مشتركة. وأوردا مثلاً آخر يفتقد أحد عناصر مفهوم الشعب هو الشعب السويسري، الذي يضم مجموعات من السكان لا تجمعها لغة مشتركة. علماً أن لغتي السويسريين هما الألمانية والفرنسية. أما الأمة فقد عرّفاها بأنها تمثل جماعة بشرية تعيش على الأرض نفسها، وتجمعها وحدة تاريخية ولغة مشتركة وثقافة واقتصاد، وهي صاحبة حق في السيادة والاستقلال. واستشهدا على ذلك بالأمة الفرنسية المستقلة، والأمة الكاتلونية، التي تحظى باستقلال ذاتي في إطار الدولة الإسبانية.

شرعية المطالب القومية لليهود والعرب

ووفق هذين المفهومين بحث الكاتبان مدى شرعية المطالب القومية لليهود والعرب في فلسطين، في اطار الحقوق التاريخية لكل منهما، وحق الشعوب في تقرير مصيرها. وانطلقا بداية في القول إن مصطلح الحقوق التاريخية لم يكن قائماً قبل ثلاثة آلاف سنة عندما غزت القبائل العبرية ارض كنعان، ولا قبل ألفي سنة حين اجتاح الرومان «أرض إسرائيل»، ولا قبل ١٤٠٠ سنة عندما غزت العرب أراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية. «وإذا أخذنا الرومان مثالاً سنجد أن احتلال أوروبا بأكملها، والشرق بأكمله على أيديهم، لم يُبرّر بحجة وجود شعوب رومية في تلك المناطق في فترات سابقة. عدا ذلك لم يتكرم أي غازٍ بسؤال الشعوب المحتلة فيما اذا توفرت لديها الارادة بأن تكون جزءاً من امبراطوريته. فقط قوانين الغاب والمصالح الاقتصادية، هي التي بررت احتلال مناطق جديدة».

ويرى الكاتبان أنه من الخطأ الحكم على الأحداث التاريخية وفق معايير أخلاقية آنية. ويقترحان على من يريد الحديث عن الحقوق أن يدرك أولاً ماهية هذه الحقوق، التي يريد الوصول إليها «فعندما يدّعي» زعماء أمة أو شعب أن حقوقهم انتهكت قبل ألف سنة، أو مئة سنة من قبل شعب آخر، يجب عليهم مراعاة السياق التاريخي للأحداث، وربطها بالأخلاقيات التاريخية السائدة في تلك الفترة» ولا شك في أن الاحتلال وحده لا يمنح المحتل حقوقاً تاريخية على بلاد احتلها. «والمشكلة أن كل طرف من الاطراف، التي تدّعي أن لها حقوقاً تاريخية في فلسطين الانتدابية يستهل ادعاءه بنقاش حول المسألة، عن طريق التنكر لوجود الطرف الآخر في الماضي كأمة».

ويعد الفصل الثالث «النهضة القومية لدى اليهود والعرب» من أهم وأخطر فصول الكتاب، لما يحويه من أفكار ومعلومات لم يعتد معظم القرّاء العرب على سماعها لأسباب كثيرة لا مجال للخوض فيها، كونها تتعارض، في كثير منها، مع ما درسوه في المدارس والجامعات العربية.

وتناول الكاتبان الصحوة القومية لليهود والعرب في القرن التاسع عشر بشيء من التفصيل، حيث «وقف شعبان وجهاً لوجه. الشعب اليهودي، من جهة، الذي نجح بفضل وعيه العميق لهويته القومية، بالرغم من غيابه الطويل، ببناء جسر من الحياة القومية، التي نشأت في أرض إسرائيل قبل ألفي سنة، وبين طموحه ببناء فلسطين – أرض إسرائيل، في اطار الصحوة القومية للشعوب، كدولة لليهود. والسكان الناطقين بالعربية، من الجهة الأخرى، الذين يفتقدون الهوية القومية، لكنهم تواجدوا في البلاد، منذ مئات السنين، ونجحوا بفضل حضارتهم ببناء جسر بين الامة العربية الاولى، منذ عهد بني أمية، وبين حاجتهم للهوية القومية، وذلك حين لمستهم يد الصحوة القومية في القرن التاسع عشر». ويريان أن ما انقذ الحركة القومية اليهودية – في بدايتها– من تلوث الفكر الديني الغيبي المنفصل عن واقع العالم الحديث هو المعارضة الشديدة جداً، التي أبدتها الحركة الصهيونية لمثل هذا الفكر، الذي وقف ضد قيام دولة يهودية قبل قدوم المسيح المنتظر.

ويحلل الكاتبان تأخر تبلور الفكر القومي العربي في فلسطين، بسبب ارتباطه الوثيق بالدين، الأمر، الذي نتج عنه تغلغل اليهود في فلسطين، ونجاحهم في تنفيذ مشروعهم السياسي، ويقولان: «يصعب على الحركة الوطنية العربية في فلسطين التخلص من التخيلات، التي خلقتها العلاقة المطلقة بين الشعب العربي والأمة، منذ أن شرّع عمر بن الخطاب الجهاد لاحتلال العالم، وحتى يومنا هذا. ويتصرف الزعماء وكأن الأمة العربية سكنت في هذه الاراضي، منذ ١٤٠٠ سنة، واضطرت فجأة لمواجهة غزو أجنبي لا علاقة له مع تاريخ هذه المناطق، والاجتياح العربي في القرن السابع ونظام الذمة، الذي جرد السكان من أراضيهم، وتمرد الموالي في عهد العباسيين، والغزوات المختلفة، كغزو الاتراك والسلاجقة والصليبيين والمغوليين والمماليك والاتراك والعثمانيين، وتحرير بريطانيا للشعوب الناطقة بالعربية.. كل ذلك انتسى، وشَطَب بجرّة قلم ١٢٥٠ سنة من تاريخ شعوب المنطقة الاسلامية غير العربية، وذلك من أجل العودة إلى العهد الأموي «كونه عربياً خالصاً». ولو أن الشعب، الذي تبلور بمرور الأيام إلى الشعب العربي، طور وعياً لهويته في عهد محمد علي باشا، وانضم إليه من أجل

تأسيس الأمة العربية، وحتى لو تمرد بعد ذلك في القرن التاسع عشر من أجل إقامة دولة عربية، كما فعل ذلك السكان النصارى في أجزاء أوروبية من الامبراطورية العثمانية. فمن الواضح حينئذٍ أنه لم يكن بمقدور اليهود العودة إلى فلسطين، وإقامة دولتهم فيها. وحتى في أثناء الحرب العالمية الأولى، لو أن السكان الناطقين بالعربية تمردوا على الأتراك لطردهم، ما استطاع اليهود الاستمرار بمغامرتهم القومية في فلسطين، ازاء أمة عربية صارمة ومنتصرة. حتى تمرد الشريف حسين في مكة، الذي حصل جزئياً بدعم من بريطانيا، كان دافعه دينياً، ولم يفلح بالامتداد إلى بلدان الهلال الخصيب».

وخلص الكتاب إلى أن الحل العادل للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، لا يتأتى عن طريق الحرب، وإنما عن طريق التفاوض، وفق المبادئ الدولية، التي اقرت عقب الحرب العالمية الثانية «وعلى الأمتين الابحار نحو هذا الغد في الأيام المقبلة».

أربعة فصول وخلاصة

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الكتاب الذي نعرضه يتألف من أربعة فصول، وخلاصة، حمل الفصل الأول عنوان «مغامرة الأمة العبرية» وتناول هجرة القبائل العبرية إلى أرض كنعان واحتلالها، واستيطان الفلسطينيين جنوب غرب البلاد، والمحاولة الأولى لتوحيد الاسباط العبرانية تحت قيادة الملك شاؤول «١٠٢٠-١٠٠٢ق.م» ومملكة إسرائيل الموحدة «١٠٠٢-٩٢٠ق.م» ومملكة داود «١٠٠٢-٩٦٠ق.م» والملك سليمان «٩٦٠-٩٢٢ق.م» وانقسام مملكته في العام ٩٦٢ق.م، ومملكة يهودا في عهد مملكة إسرائيل، ونشوء الامبراطورية الفارسية «٥٣٩ ق.م» والمحاولات الأولى للعودة إلى أورشليم «٥٣٨ق.م» والسلطة الرومانية وخراب الهيكل، واليهود في فلسطين في إطار الامبراطورية النصرانية في الشرق «٣٢٣-٤٥٣م» والعلاقات بين المملكة اليهودية في جنوب شبه الجزيرة العربية وبين يهود فلسطين.

اضافة الى عناوين أخرى تصب في الاتجاه ذاته «مغامرة الأمّة العبرية». ويخلص هذا الفصل إلى نتيجة مفادها أن بقاء اليهود وتماسكهم طوال الفترة التاريخية الماضية، التي تميزت بانقراض شعوب وظهور شعوب جديدة، يعود إلى اخلاصهم لمشروعهم المشترك، الذي تجسد بالتوراة المكتوبة والمنقولة.

أما الفصل الثاني، فحمل عنوان «مغامرة الأمة العربية» وضم عدداً من العناوين الفرعية، أهمها الوضع الاقتصادي والسياسي في شبه الجزيرة العربية، وتسرب العقيدة التوحيدية إليها، وهجرة اليهود الى الجزيرة العربية بعد خراب الهيكل الثاني العام ٧٠م، وأوضاع الشرق الأدنى في القرن السابع الميلادي، خصوصاً في عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية «بيزنطة» وأحوال مكة عند ولادة النبي محمد، والصعوبات التي لقيها في نشر دعوته، وعلاقته باليهود، التي راوحت بين المد والجزر، وانتهت بإجلائهم عن شبه الجزيرة العربية، وعهد الخلفاء الراشدين والصراع على الخلافة بعد موت الخليفة عمر بن الخطاب، والفتوحات الاسلامية في عهدهم، ووصول الأمويين إلى السلطة، واعتمادهم في ترسيخ دعائم حكمهم على العنصر العربي الخالص ثم انهيارهم، وظهور العباسيين واعتمادهم على العنصر غير العربي في بقائهم في الحكم، ثم تفكك امبراطوريتهم إلى دويلات، وظهور العثمانيين كقوة عظمى، واحتلالهم أجزاءً واسعة من دول العالم، وحال الأمم والشعوب في عهدهم، ثم تداعي حكمهم بالتدريج.

ويعد الفصل الثالث «النهضة القومية لدى اليهود والعرب» من أهم وأخطر فصول الكتاب، لما يحويه من أفكار ومعلومات لم يعتد معظم القرّاء العرب على سماعها لأسباب كثيرة لا مجال للخوض فيها، كونها تتعارض، في كثير منها، مع ما درسوه في المدارس والجامعات العربية. ويتناول هذا الفصل الشعور القومي العربي في القسم الشرق أوسطي من الامبراطورية العثمانية، وبوادر الحركة القومية اليهودية في فلسطين، وتغلب الشعور الديني على القومي لدى العرب، ويقظة القومية العربية ودور المسيحيين في الدعوة إليها، والحرب العالمية الأولى ووعود انكلترا للقوميين العرب واليهود، وأوضاع اليهود والعرب في فلسطين في فترة الانتداب البريطاني «١٩٢٠-١٩٤٨» والهجرة اليهودية إلى فلسطين، ونضال الحركة القومية العربية في فلسطين ضد الصهاينة، ونهاية الانتداب ومأساة الشعب العربي الفلسطيني، وتطور دولة إسرائيل وتبلور القومية الفلسطينية «١٩٤٩-١٩٩٨».

وفي ثنايا هذا الفصل عقد الكاتبان مقارنة بين «القومية» اليهودية وبطء تنامي الشعور القومي العربي في فلسطين «الذي كان سبباً من أسباب النكبة الفلسطينية».

وبخصوص يقظة اليهود، بيّن الكتاب أن «الشعب اليهودي، الذي حافظ على جمرة ذاكرته استجاب في القرن التاسع عشر لليقظة القومية، في إطار نضال الشعوب لممارسة حقوقها التاريخية. والصهيونية، التي تأسست كصدى لهذه الظاهرة، كانت تعبيراً سياسياً عن مطالب ذلك الشعب، الذي لم يرَ مستقبلاً لنفسه، إلاّ بالبعث القومي للأمة اليهودية على أرض آبائها. وهذه اليقظة لم تكن المحور الايديولوجي المؤسس للأمة فقط «وحدة الديانة» وإنما حول ماضيها التاريخي والثقافي ». وعن الحركة القومية العربية في فلسطين قال الكاتبان: «على الرغم من كون العرب أغلبية كبيرة في حدود الانتداب البريطاني على فلسطين، لم يطور قادتهم قومية عملية بهدف تهيئة الظروف لتأسيس مجموعة قومية فلسطينية. وهناك سبب آخر يكمن في حقيقة ان المجتمع العربي الفلسطيني كان اقطاعياً ومنقسماً إلى حمائل. فأصحاب الاقطاعات الكبيرة، الذين كانوا القادة الحقيقيين للمجتمع، لم يشجعوا، في اطار النضال القومي، ظهور مجموعات منظمة وطبقات ممأسسة، خوفاً من تهديد سيطرتهم

على المجتمع، فالحاج أمين الحسيني، المفتي الكبير، على سبيل المثال، مثل مصالح الاقطاعيين، والبرجوازية فشلت في اسماع صوتها في المجال السياسي، ولم يتم عمل أي شيء من أجل اقامة مؤسسات إدارية استعداداً لاقامة دولة، ففي حين لم يكتف اليهود بامتلاك الأراضي البور، فقط، بل عملوا كل ما يلزم لتطوير بلدات زراعية (موشافيم وكيبوتسات) اهتم الاقطاعيون العرب بزيادة املاكهم على حساب اصحاب الملكيات الصغيرة، الذين اضطروا إلى هجر أراضيهم والعمل في المنشآت اليهودية، ولصد الاستيطان اليهودي لم يفطن القادة العرب بالمرة إلى اقامة صندوق قومي فلسطيني لامتلاك أراضٍ من أصحاب الاراضي، الذين لم يسكنوا البلاد، وتوطين مزارعين في الأراضي، التي وضعت المؤسسات الصهيونية عيونها عليها، والأسوأ أنهم باعوا بواسطة شخصيات وهمية اراضي غير خصبة لليهود، من دون تفكير، ولو للحظة، بالابعاد السياسية للأمر».

ويعيب الكاتبان على بعض ابناء العائلات العربية الغنية، لأنهم غادروا فلسطين في الفترة بين كانون الاول ١٩٤٧ وآذار ١٩٤٨ خوفاً على حياتهم، لتنتقل هذه الظاهرة ، فيما بعد، إلى الملاك في المناطق الريفية، ويستشهدان على ذلك بنص رسالة كان أرسلها المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، الجنرال سير آلان كاننغهام، إلى سكرتيره لشؤون المستوطنات، آرثور كريتش – جونس، يفسر له فيها تأثير هذا السلوك على بقية السكان الفلسطينيين، وجاء فيها: « عليك أن تعرف أن انهيار المعنويات بين العرب في فلسطين جرى، إلى حد ما، لأن الناس، الذين كان يفترض فيهم ان يقودوهم نزعوا إلى مغادرة البلاد، مثلاً في يافا خرج رئيس البلدية إلى عطلة لمدة اربعة أيام، قبل اثني عشر يوماً، ولم يعد، ونصف أعضاء اللجنة القومية انصرف، وفي حيفا غادر الأعضاء العرب في مجلس البلدية قبل فترة، وقائدا جيش الانقاذ العربي غادرا خلال المعركة الأخيرة، وفي كل أرجاء البلاد غادر «الأفندية» بمجموعهم منذ فترة».

وفي الفصل الرابع يقوّم الكاتبان عدداً من القضايا، التي تهم العرب واليهود، مثل تبلور الأمة الحديثة في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا وأميركا، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، والحقوق التاريخية، والاشكالية الاسرائيلية – الفلسطينية، والشعب اليهودي وعلاقاته الدائمة مع المناطق المحتلة التي شكلت فلسطين الانتدابية ، والشعب الفلسطيني وعلاقاته مع الأراضي التي كونت فلسطين الانتدابية، والواقع والخيال عند اليهود، والحلم والواقع عند الشعب العربي الفلسطيني.

الخلاصة

وفي ختام كتابهما يخلص المؤلفان إلى عدد من الاستنتاجات والحلول يريانها مفيدة لإنهاء الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي ، نوردها ضمن النقاط الآتية:

١ - شكل اتفاق اوسلو (١٩٩٣) أساساً للاعتراف المتبادل بحقوق الطرفين الاسرائيلي والفلسطيني في الأرض ، التي تقع بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، ضمن دولتين مستقلتين سياديتين.

٢ - بما أن الشعب الاسرائيلي يعيش في دولة مستقلة ذات سيادة، لذا، فإن أي حلّ يتجاهل الدولة الفلسطينية ذات السيادة هو حل لا يمكن القبول به، وسيكون مصدراً لصراعات دموية لا تنتهي.

٣ - يجب أن يتوافق رسم حدود الدولتين مع الاحتياجات الحيوية للطرفين، ويضمن أمنهما، مع التنبيه إلى أنه لن يكون هناك سلام حقيقي، إذا لم تكن الدولة الفلسطينية متطورة ومزدهرة، وأن انشاء كيان فلسطيني مجزوء سيكون مصدراً لمشاكل لا تنتهي بينهما.

٤ - تقسيم القدس بين الدولتين الاسرائيلية والفلسطينية، بحيث تكون القدس الغربية عاصمة إسرائيل، والقدس العربية عاصمة الدولة الفلسطينية، «ومن أجل المحافظة على وحدة المدينة، هناك امكانية للتباحث حول توزيع الصلاحيات في الأحياء المختلفة للمدينة، بحسب تبعيتها لعاصمة إسرائيل، أو لعاصمة الدولة الفلسطينية».

٥ - تناسى الكاتبان، ربما عن قصد، التطرق إلى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ولم يقترحا أية حلول لهذه المشكلة العويصة.

وخلص الكتاب إلى أن الحل العادل للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، لا يتأتى عن طريق الحرب، وإنما عن طريق التفاوض، وفق المبادئ الدولية، التي اقرت عقب الحرب العالمية الثانية «وعلى الأمتين الابحار نحو هذا الغد في الأيام المقبلة».

ويبقى أن نشير في الختام إلى أن هذا الكتاب يقع في ٣١٩ صفحة من القطع المتوسط، ووضع باللغة الفرنسية، وترجمه عن النص العبري الكاتب الفلسطيني سلمان ناطور، وطابقته مع النص الفرنسي الدكتورة رانية فلفل المبيض، وصدرت طبعته العربية في خريف ٢٠٠٠ عن «منشورات مشاعل للصحافة والدراسات» في رام الله.

وننوه هنا إلى أن الكتاب لم يشر إلى جنسيتي مؤلفيه: ميخائيل هرسيغور (الإسرائيلي)، وموريس سترون (السويسري)، وهما كاتبان مشهوران ، كما يؤكد ذلك عدد الكتب التي ألفاها، وخصوصاً في مجال التاريخ الانساني، ومنها القضية الفلسطينية والصراع الفلسطيني - الإسرائيلي.